ينشر لأول مرة

من تاريخ الدولة المركزية المغربية الوسيطية

وجدة: منشورات الهلال ، ٢٠٠٦.

الجزء الثاني

الارتزاق

د.عبد العزيز غوردو
أستاذ باحث وإطار في الإدارة التربوية
أكاديمية الجهة الشرقية
وجدة - المملكة المغربية
ghourdou.abdelaziz@voila.fr

الباب الأول ◄◄ المفاهيم والأصول

الفصل الثاني ▼

جذور الارتزاق في التاريخ الإسلامي والمغربي

جذور الارتزاق في التاريخ الإسلامي

لاشك أن تاريخ الارتزاق قديم جدا ، ربما بقدم تاريخ الحضارة الإنسانية نفسها ، وليست الأدلة التاريخية هي التي تعوزنا لتأكيد ما نقول. فالحضارة المصرية - وهي واحدة من أقدم الحضارات البشرية - قد لجأت إليه ، إذ كان أمرا عاديا أن يكتري الفراعنة جنودا من الإغريق الآسيويين ، الذين كانوا يعرضون خدماتهم عن طيب خاطر للكراء ويضعونها رهن إشارة الفراعنة ، وما زالت المعسكرات التي كانوا يقطنونها ماثلة في "الدلتا" و"ممفيس" شمال مصر ، كما نجد شواهد مماثلة في الجنوب أيضا في "أبوسنبل"[١]

كما أن الإغريق أنفسهم استخدموا المرتزقة في صراعهم مع القرطاجيين والأوتروسكيين[٢] ، حيث كان من السهل جدا جمع عشرة آلاف مرتزق أثناء فترات الأزمات الاقتصادية عندما يضيق العيش بالفقراء ، ويصبحون على استعداد لبيع خدماتهم العسكرية ، خاصة مع الإغراء المادي المتمثل في الأجور المرتفعة التي كان يعرضها بعض الملوك ، داخل اليونان القديمة أو خارجها ، فضلا عن الغنائم التي قد يحصل عليها المرتزق من وراء المعارك.[٣] وهكذا أصبح من الطبيعي لدى حكام أثينا في العصر الهيليني - وبعد أن اختفى نظام الخدمة العسكرية - أن يجعلوا الدفاع عن دولتهم من اختصاصات المرتزقة[٤] في ظروف أصبح فيها العمل قليلا جدا - مع منافسة العبيد على فرص الشغل - وأضحى الملاذ الوحيد لدى العديد من الأحرار هو الارتزاق.[٥]

وفي شمال أفريقيا نعرف بأن الدولة القرطاجية القديمة كانت تحمي حدودها وإمبراطوريتها التجارية بالاعتماد على جيوش مرتزقة ، لأن الشعب القرطاجي - وهو شعب تجارة أساسا - لم يكن يتوفر على تقليد كبير في مجال الحرب ، لذا لجأ إلى كراء الخدمة العسكرية مقابل أجور مادية. وهي قضية خلقت العديد من المشاكل لقرطاج ، أهمها الثورة التي أشعلها جنود غاضبون على عدم تلقي رواتبهم بقيادة المرتزقة الليبيين الذين نظموا حصار "أوتيكا" ، واستمرت الثورة من ٢٤١ ق.م إلى ٢٣٨ق.م ، قبل أن تتم إبادة الثوار بقسوة من طرف هاملقار بركة وقواته.[٦]

هذه مجرد أمثلة دالة على حضور الارتزاق بالعديد من الحضارات المختلفة عبر التاريخ البشري الطويل. أما إذا رجعنا إلى تاريخ الإسلام ، فمن المعروف أن عرب "الجاهلية" لم يعرفوا الجيش النظامي ، أي ذاك النوع من البشر الذي شغله الشاغل هو الحرب والعمل الحربي مقابل أجر. لا ينفي ذلك عنهم صفة الحرب بتاتا ، فالحرب كانت جزء من حياتهم اليومية: يغيرون ويغار عليهم ، لكن بعد انقضاء الغارة يعود الراعي لقطيعه ، والتاجر لتجارته وهلم جرا...[٧] وبعد الهجرة إلى يثرب ، بدأ النبي في تكوين جيش بمعناه المتخصص ، صحيح أنه لم يكن متفرغا للحرب بصفة نهائية ، إذ ظل أفراده يمارسون أنشطة مدنية مختلفة ، لكن مع ذلك فقد بدأ التخصص يلوح في الأفق.

فالروايات التاريخية تحدثنا أن السرايا التي بعثها الرسول قبل بدر ، بلغ عددها ثمانية (أي في أقل من سنتين)، فإذا أحصينا عدد السرايا والغزوات في مرحلة الإقامة النبوية بالمدينة (حوالي عشر سنوات) فإننا نعد حوالي خمس وستين[٨] ، فإذا قارنا ذلك بعدد "الأيام" التي التقت فيها بكر وتغلب في البسوس أو عبس وذبيان في داحس والغبراء ، وكلاهما دامت أربعين سنة - على ذمة الرواة - فإن أيام المواجهة الفعلية كانت معدودة على أصابع اليد.[٩] من هنا نفهم النقلة النوعية الكبيرة في المجال الحربي التي سنها النبي عليه السلام ، والتي كان لها بالغ الأثر في انتصاراته اللاحقة.

صحيح أن الجيوش التي كان يجهزها الرسول للغزو لم تكن جيوشا نظامية ، كما أنها لم تكن جيوش مرتزقة ، لكننا رأينا فيها ملامح الارتزاق وبوادره ، تماما كما أصبحنا نرى ارتزاقا مماثلا في أحداث الفترة بجزيرة العرب ، ونقصد هنا بالذات فترة "الردة" التي تبدو مجالا خصبا لازدهار الارتزاق ، خاصة وأنها فترة مشحونة بالصراعات المختلطة العناصر ، المتشعبة الطوائف والفئات. نعرف من خلال المصادر ، تورط بعض الأسماء اليهودية فيها ، كما هو الشأن في ردة بني وليعة والأشعث بن قيس[١٠] ،كما نعرف أيضا في أخبار الأسود العنسي أنه استخدم عناصر فارسية في حركته ، وهي العناصر التي نجح النبي (قبيل وفاته) في استمالتها إلى جانبه ، خاصة وأن الأسود العنسي كان يسيء معاملتها ، وهي (العناصر الفارسية) التي قتلت العنسي وقضت على حركته.[١١]

فإذا أضفنا أن الارتزاق - كما عرفناه سابقا - لا يرتبط بالأجر (المال) فقط ، وإنما بالأرض (الإقطاع)أيضا[١٢] ، وحاولنا تقصي جذوره

تاريخيا ، فإننا سنعود بالضرورة إلى العهد النبوي. ذلك أننا متأكدون - في تاريخ الإسلام - أن النبي عليه السلام هو الذي أوجد بين مجتمعات القبائل ، ولأول مرة في تاريخها ، مبدأ تعمير الأرض بعد غزوها. ففي السابق كانت القبيلة تغير على القبيلة ، بغية ثأر أو غنيمة... ثم تعود إلى مضاربها سواء حققت هدفها أم لا ، لكن الرسول ، وبعد العمليات الحربية الأولى ، سيتخذ خطوة أخرى وهي إخضاع المجال للدعوة الجديدة وتفويته للمسلمين أحيانا. وقد دشن الرسول عليه السلام هذه السياسة أولا في أراضي اليهود (بني قريظة وفدك ووادي القرى) حيث أجلى اليهود عنها وعمرها المسلمون.[١٣] كما رويت حالات عديدة عن الإقطاع في العهد النبوي ، كإقطاع أرض لمزينة وجهينة ، وإقطاع الرسول للزبير أرضا مفروسة كانت لبني النضير.[١٤] إلا أن النبي ، وهو يقوم بتوزيع هذه الأراضي على المسلمين ، لم يكن يشترط في مقابل ذلك تفرغهم للعمل العسكري ، ذلك أن الجيش النظامي لم يكن قد تشكل بعد ، كما أن المسلمين يعلمون بأن "الجهاد" فرض حق على كل مسلم توفرت فيه الشروط (بغض النظر عن نواياه قبل الخروج للقتال) ، وقد تواصل الأمر نفسه زمن خلافة أبي بكر ، فما الذي جد مع عمر بن الخطاب ؟

يذكر الطبري في أحداث سنة ١٧هـ أن عمر قسم «الأرزاق وسمى الشواتي والصوائف»[١٥] ثم رجع إلى المدينة وخطب في الناس فقال: «إن شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم... وأمرنا لكم بأعطياتكم ، وأرزاقكم ومغانمكم...»[١٦] وهو «أول من دون للناس في الإسلام الدواوين ، وكتب الناس على قبائلهم ، وفرض لهم العطاء.»[١٧]

ففي عهد الرسول ﷺ وأبي بكر ، كانت الغنائم والموارد توزع في حينها ، لكن مع عمر ، وقد اتسعت دار الإسلام وكثرت مواردها المالية ، فإنه قد اتخذ لها بيت مال تجمع فيه وتوزع على الناس وفق كتاب الله ،[١٨] وهذا ما كفله ديوان العطاء. فالجند في السابق (أي في عهد الرسول وأبي بكر) كانوا متطوعة - أو مرتزقة ولكن بشكل غير منتظم - والغنائم كانت توزع عليهم في حينها ، أما عمر فقد بدأ في وضع نواة جند نظامي. قال الوليد بن هشام بن المغيرة وقد شهد مع الناس الأموال الكثيرة التي كانت ترد على عمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين قد جئت الشام ، فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا ، وجندوا جندا ، فدون ديوانا ، وجند جندا ، فأخذ بقوله...»[١٩]

ولاشك أن جيشا نظاميا يحتاج ، بالإضافة إلى الموارد التي يحصل عليها من الغنائم ، إلى رزق ثابت يعيش منه ، ونحن نعرف أن الدواوين التي أحدثها عمر أربعة ، وهي: العطاء - الخراج - البريد - الجند ، وأن هذا الديوان (الجند) أصبحت تسجل فيه أسماء الجنود وأعطياتهم وأرزاقهم في إباناتها. من هنا ، نعتقد ، تفتقت فكرة الارتزاق المنظم ، وتطورت مع الزمن أي مع تطور الجيش النظامي في الدولة الإسلامية ، وذلك بغض النظر عن الأشكال النمطية التي اتخذها الارتزاق لاحقا.[٢٠]

فالدولة الأموية ، وهي الدولة العربية التي تعصب خلفاؤها تارة للقيسية وتارة لليمنية - لكنها كانت دائما تتعصب للعرب دون غيرهم من الأجناس - نجد زعيمها معاوية «لما بويع بالخلافة صير على شرطته قيس بن حمزة الهمذاني (وهو فارسي الأصل)... وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي ، وعلى حرسه رجل من الموالي يقال له المختار ، وقيل: رجل يقال له مالك ، ويكنى أبا المخارق ، مولى لحمير. وكان أول من اتخذ الحرس ، وكان على حجابه سعد مولاه...»[٢١] ، ونحن نعرف أن المولى هو المسلم غير العربي. فإذا كان أمر الدولة الإسلامية هكذا في عهد الأمويين المتعصبين للعرب ، بل وفي عهد زعيمهم معاوية ، فكيف سيكون أمر "المرتزقة" الذين شغلوا مختلف الوظائف في عهد الدولة العباسية مثلا ، وهي دولة قامت أصلا على أكتاف غير العرب ؟

إن الارتزاق إذن متجذر في الدولة الإسلامية ، وتطور مع تطوراتها ومراحلها المختلفة ، وإن كان المظهر الخارجي لتاريخ الإسلام يوحي بأن المرتزقة لم يظهروا في هذا التاريخ إلا مع العباسيين ، وهذا هو المنزلق الذي وقع فيه ابن خلدون ، أو أنه انتبه إليه لكنه لم يعره اهتماما كبيرا بسبب تعارضه مع التوجه العام لنظريته ، فتعامل معه بذكاء. فقد كتب فصلا في مقدمته تحت عنوان: فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية: «ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة ، إما بالموالي والمصطنعين الذين نشؤوا في ظل العصبية وغيرها ، وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها ، الداخلين في ولايتها. ومثل هذا وقع لبني العباس ، فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق ، واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم.»[٢٢] منزلق وقع فيه أيضا من تبنى نظرية ابن خلدون دون أن يقوم بمتابعة مجهرية لموضوع الارتزاق ، وهكذا نرى زنيبر يكتب ، مثلا ، في نفس الإطار: «ونحي العرب من الجيش وتقلص نفوذهم في دواليب الدولة...(في المرحلة الثانية للخلافة العباسية) ، وفي الوقت الذي كان يظن فيه (الخليفة) نفسه مطاعا لجيش وفي ومخلص ، وجد نفسه رهينة في يد ذلك الجيش ، وهذا ما وقع بالضبط للخلفاء العباسيين مع المماليك الأتراك الذين جلبوهم من وسط آسيا ليتخذوا منهم جندا خاصا لهم ، فإذا بهم ينقلبون عليهم ويحاصرونهم في قصرهم ويستلبون منهم كل سلطة ، بحيث لم يبق للخلافة إلا الاسم.»[٢٣]

وكان المستشرقون (الذين أثاروا القضية) ، هم الذين شكلوا المنعطف بين ابن خلدون وزنيبر (ومن نحا نحوه) ، فهذا المستشرق الإنجليزي ستانلي بول كتب في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي: «وفي منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، سيطر على جهاز الدولة العباسية القواد والأمراء والحجاب المماليك الأتراك. وخلال هذه الفترة قامت الدولة البويهية في الجزء المتبقي لهم في إيران حتى أخذت تهدد مركز الخلافة في بغداد وأخذ السلطان البويهي يضايق الخليفة العباسي في اختصاصاته سنة ٣٣٤هـ/٩٤٤م.»[٢٤]

لم نهدف من خلال ما رصدناه عن الجذور التاريخية للارتزاق بالدولة الإسلامية ، القيام بمتابعة كرونولوجية دقيقة لتطور أشكال الارتزاق في دولة النبي والخلفاء الراشدين ، ثم الدولتين الأموية والعباسية ، بقدر ما هدفنا الكشف عن أهم المحطات التي توقفت عندها الظاهرة منذ ظهور المرتزقة الأوائل ، بأشكال ابتدائية ، زمن النبي عليه السلام[٢٥] إلى غاية نضج الظاهرة مع أتراك الدولة العباسية ، علما بأن مصادر التاريخ الإسلامي العامة ، وفي مقدمتها مدونة الطبري التاريخية ،[٢٦] تقدم إشارات غنية - ولكن بشكل متفرق - حول موضوع الظاهرة .

أصول الارتزاق ببلاد المغرب قبل قيام المرابطين[٢٧]

لنبدأ تاريخ الارتزاق ببلاد المغرب - خلال العصر الوسيط الأول - بأخبار النصارى وهم يدلون المسلمين على ثغرات البلاد لفتحها، هذا إذا لم يكن استخدام الروم للبربر، أو استخدام العرب للبربر واليهود وغيرهم، نماذج مقنعة عن وجود أشكال من الارتزاق منذ الفتح الإسلامي الأول لبلاد المغرب.

فأثناء العمليات الأولى التي قادها عقبة بالشمال الإفريقي، يذكر القيرواني أن الروم الذين واجهوه كانوا يستعينون بعناصر بربرية[٢٨]. كما يذكر أن الروم أصبحوا من أتباع كسيلة عندما أصبح أميرا على إفريقية[٢٩]. ومن المؤكد طبعا أن العرب استخدموا البربر في فتوحاتهم الأولى، إذ نعرف مثلا بأن طارق بن زياد بربري[٣٠]، وقد استخدم في جند العرب وقادهم لفتح الأندلس (مسألة سنعود لها بعد حين)، بل قبل هذا التاريخ بكثير نعرف من خلال المصادر[٣١] كيف أن أبناء الكاهنة دخلوا في خدمة حسان بن النعمان، وهذا دليل على أن أتباع الكاهنة الآخرين - أو قسم منهم على الأقل - قد دخل في خدمة الجيش الإسلامي. ذلك أنه في شروط الصلح التي أعقبت هزيمة الكاهنة يذكر القيرواني بأن البربر استأمنوا حسانا «فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من جميع قبائلهم اثني عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين.»[٣٢] كما يروي القيرواني أيضا كيف أن عبد العزيز بن مروان - والي الأمويين على مصر - بعث ألف قبطي وألف قبطية من مصر إلى إفريقية ليشرفوا على بناء الأسطول الحربي الإسلامي ببلاد المغرب برسم الجهاد والمرابطة.[٣٣]

نقرأ أيضا في المصادر[٣٤] أن معاوية بن حديج عندما غزا إفريقية سنة ٤٥هـ/٦٦٦م، كان من ضمن جنده "حباحبة" الرومي، وقد ولاه معاوية على الإسكندرية قبل أن يواصل طريقه نحو إفريقية، كما نقرأ أيضا بأن كسيلة عندما كان يقاوم الفاتحين المسلمين - زهير بن قيس وقواته - كان يقود جيشا خليطا من البربر والروم.[٣٥] وعند حصار زهير بن قيس البلوي مدينة قرطاجة (وكان أميرها روميا) نجد البربر «يمدون الروم بعسكر عظيم من صطفورة.»[٣٦]

وعندما نمر إلى عصر الولاة بشمال أفريقيا، ونحاول تتبعه عند مؤرخ كابن عذاري مثلا[٣٧]، فإننا لا نكاد نجد صفحة من صفحات كتابه - أثناء حديثه عن هذه المرحلة - تخلو من عبارة "الجيش العربي" أو عبارة "الجيش البربري"[٣٨] لكن حق لنا أن نتساءل: هل كان الجيش العربي عربيا فعلا، وهل كان الجيش البربري بربريا خالصا؟ خاصة وأن ابن عذاري نفسه يقر في عدة مناسبات أن الجيوش العربية كانت فيها عناصر من الشام وخراسان وغيرها...[٣٩] فيذكر مثلا بأن هارون الرشيد قد أرسل إلى إفريقية سنة ١٩١هـ/٨٠٧م «ثلاثين ألفا من جند خراسان»[٤٠] ويذكر في مكان آخر[٤١] أن البربر والزنوج (ألف أسود) اشتركوا إلى جانب والي العباسيين (زيادة الله بن الأغلب) سنة ٢١٠هـ/٨٢٦م لقمع إحدى الانتفاضات، كما يذكر في أخبار إمارة "نكور" أن سعيد بن صالح لما توطد له الأمر «دخل عليه عبيده الصقالبة، فسألوه العتق، فقال لهم: أنتم جندنا وعبيدنا، لا تدخلون في ورثنا، فما طلبكم العتق؟ فألحوا عليه في ذلك، وناله جفاء منهم، وخلعوه، وقدموا أخاه عبيد الله وعمه الرضى المكنى بأبي علي...»[٤٢].

مما يدل على أن استعمال المرتزقة في هذا التاريخ أصبح شائعا في المشرق والمغرب الإسلاميين، ويجعلنا لا نستغرب عندما نسمع أخبارهم في التواريخ اللاحقة، ففي أخبار سنة ٢٦٧هـ/٨٨٠م كان مع ابن طولون في غزوته لإفريقية «ثمانمائة فارس وعشرة آلاف راجل من سودان أبيه»[٤٣]. كما يمكن أن نفهم في نفس السياق أن عبد الله الشيعي عندما دخل إفريقية «وأمن من ألفى بالقيروان من بني الأغلب - بعد هروب زيادة الله الأغلبي لمصر - وقوادهم الذين تخلفوا عن زيادة الله، أمر بقتل السودان من موالي بني الأغلب»[٤٤] مما يجعلنا نؤكد أن استخدام الزنوج، وغيرهم من العناصر الأخرى على كل حال، قد أصبح أمرا عاديا جدا.

وحتى إذا كان كل ما ذكرناه من إشارات (حول حضور المرتزقة في تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وما أعقبه من أحداث)، ليس قويا بما فيه الكفاية، فإن تاريخ افتتاح الأندلس - وما يليه - يقدم الدليل الأقوى على هذا الحضور. إذ منذ الفتح الذي قاده طارق بن زياد نلمس حضور عناصر متنوعة، من العرب والبربر والموالي وغيرهم،[٤٥] شاركت في غزو الأندلس وافتتاحها، لكننا سنتتبع هنا بالذات حضور العناصر المسيحية ودورها في هذا الفتح، قبل أن نمر إلى تقديم أمثلة مقتضبة عن دور المرتزقة ببلاد الأندلس زمن الدولة الأموية وملوك الطوائف، أي إلى غاية الظروف التي مهدت لعبور يوسف بن تاشفين إليها، حيث ستصبح جزء من الدولة المركزية المغربية في العصر الوسيط.

تذكر الرواية التاريخية أن يوليان قدم إلى طارق بن زياد فقال له: «إن أبي مات، فوثب على مملكتنا بطريق يقال له لذريق، فأهانني وأذلني، وبلغني أمركم فجئت إليكم أدعوكم إلى الأندلس وأكون دليلا لكم. فأجابه طارق إلى ذلك، واستنفر اثني عشر ألفا من البربر، فحملهم يليان في المراكب فوجا بعد فوج...»[٤٦] فإذا صحت هذه الرواية - وهي رواية تلقى شبه إجماع من طرف الإخباريين الذين كتبوا عن فتح الأندلس - فإن الفتح يكون قد تم على يد البربر بمساعدة النصارى، إذ بغض النظر عن العبارة "وأكون دليلا لكم" الواردة في النص، فالمفروض أن يوليان لن يقود السفن بنفسه، رغم أنه وفرها للمسلمين، بل سيقودها أتباعه أو جنوده، فتكون المشاركة "النصرانية" في الفتح بطريقتين: كون يوليان دليلا للمسلمين، ثم دعمه لهم بالسفن وما يلزمها. وواضح من تتمة الرواية أن مساعدة يوليان تواصلت حتى بعد أن انتصر طارق على لذريق وقتله، حيث وفد يوليان على طارق، مرة أخرى، فقال: «قد فتحت الأندلس فخذ من أصحابي أدلاء، ففرق معهم جيوشك وسر أنت إلى مدينة طليطلة، ففرق طارق جيوشه من إستجة.»[٤٧] كما يذكر ابن عذاري صراحة أن الجيش الذي بعثه طارق من إستجة «جعل معه دليلا من رجال يليان»[٤٨] مما يجعلنا نؤكد على مساهمة يوليان في هذا الفتح، وإن كنا نشك في الأسباب التي دفعته لذلك.

وإذا كنا نفهم من هذا السياق التاريخي، أن اتصال طارق بيوليان، جعله يستخدم النصارى - على الأقل أدلاء -[٤٩] في جيشه، فإننا لا نفهم كيف استخدمهم موسى بن نصير، القائد الأعلى للفتح، إذ تذكر الروايات[٥٠] أن موسى بن نصير عندما تنامت إلى سمعه أخبار فتوحات طارق، غضب من ذلك فعبر إلى الأندلس وأبى أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه طارق «فقال له الأدلاء من الأعلاج: نحن ندلك على طريق هي أشرف من طريقه، وعلى مدائن هي أعظم خطرا من مدائنه.»[٥١] إذ لا يفهم من هذا القول إلا شيء واحد ووحيد، هو أن موسى بن نصير استخدم هؤلاء "الأعلاج" بنفسه وبطرقه الخاصة، أي

في مقابل مادي "ارتزاق" (أو ما درجت كتب الفقه على نعته بالاستئجار).[٥٢]

بعد هذا آن لنا أن نتساءل: هل يوليان ورجاله الذين ساعدوا طارقا في فتحه، أو هؤلاء الأعلاج الذين ساعدوا موسى بن نصير أدلاء، وفي أحيان كثيرة، كانوا ينبئون المسلمين عن الثغرات الموجودة في المدن حتى يسهل فتحها[٥٣]، هل نستبعد على مثل هؤلاء أن يشاركوا في القتال "مرتزقة" إلى جانب المسلمين؟

أكيد أن قراءة متأنية للنصوص التاريخية، وبالذات قراءة التفاصيل الجزئية عن فتوح الأندلس، تجعلنا نستنتج أن النصارى ساهموا بشكل وافر إلى جانب المسلمين في فتح المدن الأندلسية، بل كيف لنا أن نشك في ذلك، في ظل إشارات نصية من الصعب تجاهل تصريحاتها؟ لنقرأ مثلا نص ابن عذاري عن فتح قرمونة: «ونهض موسى مع أدلائه من شذونة إلى قرمونة، ولم يكن بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن تنال بحصار أو قتال، فسأل موسى عن أمرها، فقيل له: لا تؤخذ إلا باللطف والحيل. فقدم إليها علوجا كانوا من أصحاب يليان[٥٤] وغيرهم، فأتوهم في هيئة المنهزمين، ومعهم السلاح، فأدخلوهم المدينة، فلما علم موسى بدخولهم بعث الخيل إليهم ليلا، ففتحوا لهم باب المدينة، وهو الباب المعروف بباب قرطبة، فوثبوا على الأحراس فقتلوهم، ودخل المسلمون المدينة عنوة.»[٥٥] كما يذكر ابن الخطيب في "الإحاطة" أن عبد الأعلى بن موسى بن نصير أثناء فتحه بعض مدن الأندلس (ألبيرة - غرناطة) ضم إليه اليهود «مستظهرا بهم على النصر»[٥٦]: ألنا بعد هذا أن ننكر وجود مرتزقة غير مسلمين ضمن الجند الإسلامي الذي فتح الأندلس؟

نميل إلى التأكيد الآن، أن الجيش الذي فتح المغرب والأندلس لم يكن كله متطوعا مجاهدا، كما أنه لم يكن كله عربيا خالصا، فقد حضرته عناصر إسلامية متنوعة من الجيش النظامي المرتزق، كما حضرته عناصر "كافرة" مرتزقة أيضا. وهذه نتيجة هامة في اعتقادنا، لأن حضور أشكال الارتزاق في بلاد المغرب منذ هذه الفترة المبكرة من التاريخ الوسيط - أي منذ احتكاك الإسلام بالمنطقة أول مرة - يجعل حضور المرتزقة في باقي فترات التاريخ الوسيط المغربي أمرا مدركا بالبداهة، وربما لا يحتاج حتى إلى تقديم الأدلة والبراهين لإثباته. ومعنى هذا القول أن الأمثلة التاريخية التي سنقدمها في الفقرات الموالية، لا نهدف من ورائها إثبات وجود الارتزاق قبل قيام المرابطين، بقدر ما هي عبارة عن نماذج مختلفة عن أشكال الارتزاق بالكيانات السياسية التي قامت بالمنطقة قبل تشكل الدولة المركزية المغربية.

لقد سبق أن ذكرنا بأن إمارة نكور شمال المغرب الأقصى عرفت استخدام المرتزقة، كما أشرنا، إشارة خفيفة، إلى أن الدولة الأغلبية بإفريقية استخدمتهم أيضا، وهي إشارة نؤكدها الآن من خلال بعض النصوص التي أثارت القضية. ذلك أن ظهور المرتزقة في هذه الدولة قديم قدم الدولة نفسها، إذ منذ إبراهيم بن الأغلب بن سالم، وبعد ولايته مباشرة سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م «أخذ في شراء العبيد وأظهر أنه يحب أن يتخذ من كل صناعة من يغنيه عن استعمال الرعية في كل شيء، ثم اشترى عبيدا لحمل سلاحه.»[٥٧] كما أن حفيده أبا العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (الذي تولى سنة ٢٤٢هـ/٨٥٥م) استخدمهم أيضا[٥٨]، إلا أن هذا الاستخدام لم يخل من مشاكل في عدة مناسبات، ففي سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م مثلا وثب الموالي الصقالبة على إبراهيم - بن أحمد بن محمد بن الأغلب - «وعقدوا الخلاف في القصر القديم ومنعوا من يجوز إلى رقادة من القيروان. وسبب ذلك أن إبراهيم أمر بقتل رجل منهم... فخالفوا عليه لذلك، فأقبل إليهم أهل القيروان في عدد لا يحصى، فارتدع الموالي وسألوا الأمان وأمنوا.[٥٩] أمان تأكد بعد حين أنه مؤقت فقط، إذ «لما جاء وقت إعطاء الأرزاق جلس إبراهيم بقصر أبي الفتح، وحضر جميع العبيد لقبض أرزاقهم، فكلما تقدم رجل نزع سيفه حتى أخذوا كلهم، وقتل أكثرهم بضرب السياط وصلبوا، وحبس بعضهم بسجن القيروان حتى ماتوا فيه، ونفى بعضهم إلى صقلية، وأمر بشراء العبيد (من بلاد السودان)، فاشتري منهم عدد كثير، وحملهم وكساهم وأخرجهم في الحروب فظهر منهم شجاعة وجلد وقوة.»[٦٠] وبعد ذلك بأربعة عشر سنة - أي في سنة ٢٧٨هـ/٨٩٠م - «بلغ إبراهيم (بن أحمد دائما) أن جماعة من الخدام والصقالبة، يريدون قتله وقتل أمه، فقتلهم عن آخرهم...»[٦١] ثم أمر «بشراء العبيد والسودان فبلغت عدتهم مائة ألف فكساهم وألزمهم بابه.»[٦٢]

أما بالنسبة للأدارسة، فرغم أننا لم نتتبع المسألة تتبعا كرونولوجيا مدققا، فإننا وقفنا على إشارات تبين أن انتقال الجند من طرف سياسي لآخر مقابل الإغراءات المادية "الارتزاق" كان موجودا، إذ نعلم أنه في أواخر هذه الدولة، أي زمن الحسن بن كنون وصراعه مع خلفاء الأندلس شمال المغرب، كانت استمالة الجنود عن طريق الامتيازات المالية حاضرة بقوة، وفي هذا الصدد يروي ابن عذاري أن القائد غالب - قائد الجيش الأموي بالمغرب - «بعث إليه (من الأندلس) بعشرة آلاف دينار لصلات الخارجين إليه من أصحاب حسن بن قنون، يوزعها عليهم بحسب مقاديرهم، وقرن بها من فاخر الكسوة والسيوف المحلاة عدد كثير للخلع عليهم.»[٦٣] وبالفعل أدت هذه العملية إلى تخلي معظم جند ابن كنون عنه ونزوحهم للأمويين مما حسم الصراع لصالحهم.[٦٤]

نحن متأكدون أيضا أن الدولة العبيدية منذ قيامها بالمغرب، اعتمدت على المرتزقة، ولنا في جوهر الصقلي[٦٥] (قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وفاتح مصر) أحسن دليل على ما نقول، لكن هل نعتبر استخدام الفاطميين[٦٦] للبربر في بناء دولتهم منذ البداية عملية ارتزاق، بما أن النصوص[٦٧] تشير إلى أن أبا عبد الله الداعي استعمل المال لبناء جيش يدعم عبيد الله المهدي؟ وإذا كان الأمر كذلك - ونحن نعرف بأن الفاطميين بعد رحيلهم لمصر خلفوا أمر المغرب لبلكين بن زيري - فهل نعتبر الدولة الزيرية دولة مرتزقة في الأصل تطورت لتأخذ شكل دولة مستقلة؟ وإذا اعتبرناها دولة مرتزقة فكيف يجوز لنا ذلك ونحن نتحدث عن دولة بربرية تحكم مجالها الطبيعي الخاص بها؟ علما بأن الزيريين أيضا مالوا إلى اتخاذ مرتزقة من عناصر متنوعة، حيث بعد محاولة أولى - منيت بالفشل - قام بها أبو الفتوح يوسف بلكين سنة ٣٦٤هـ/٩٧٣م لاتخاذ مرتزقة من العبيد[٦٨] أصبح هذا العنصر حاضرا بكثرة في العمليات العسكرية اللاحقة التي دارت بين الأمراء الزيريين أثناء صراعهم على الحكم[٦٩]، كما استعملهم أيضا المعز بن أبي مناد باديس (بن منصور بن يوسف بن زيري) في صراعه مع العرب[٧٠]، ثم تطور الأمر إلى استخدام العرب أنفسهم[٧١] في الصراع الذي دار بين الزيريين من أجل الحكم سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م (عقب وفاة المعز)، وهكذا استعان الثائر حمو بن مليل بطائفة من الإثبج وعدي، بينما استعان الأمير تميم بن المعز بزغبة ورياح[٧٢]، كما استخدمهم (تميم) في حرب بني حماد وكان لهم دور كبير في تحقيق

انتصاره[٧٣]، بل إن تميما هذا استخدم أيضا في جيشه مائة تركي[٧٤] استعان بهم في بعض حروبه ومعاركه.

لا نريد أن نختم هذا الفصل، دون أن نقدم نماذج مختصرة عن تطور الارتزاق ببلاد الأندلس خلال عصري الأمويين وإمارات الطوائف، نظرا للارتباط العضوي بين بلاد المغرب والأندلس أثناء الصراع الأموي/الفاطمي حول المنطقة، وكذا الفترة التاريخية الممهدة والمفسرة لعبور يوسف بن تاشفين مضيق جبل طارق برسم الجهاد، وبالتالي ربط الأندلس نهائيا بالدولة المركزية المغربية. ولنبدأ من حيث توقفنا عند حديثنا عن فتح الأندلس، أي مع المؤسس الأول للدولة الأموية بالغرب الإسلامي، والذي يبدو - من خلال النصوص - أول من لجأ لاستخدام المرتزقة في تاريخ هذه الدولة، ففي «سنة سبع وخمسين (١٥٧هـ/٧٧٣م) سار عبد الرحمان (الداخل) إلى أشبيلية وقتل خلقا كثيرا ممن كان مع عبد الغفار (أحد الذين ثاروا عليه بأشبيلية منذ ١٥٥هـ/٧٧١م)، وبسبب هذه الوقعة وغش العرب[٧٥] مال عبد الرحمان إلى اقتناء العبيد.»[٧٦] ورغم أن النويري هو الذي يروي هذه الواقعة، فإنه يروي في مكان آخر[٧٧] أن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل «هو أول من جند الجنود المرتزقة بالأندلس، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر الحشم والحواشي، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك وجعلهم في المرتزقة، فبلغت عدتهم خمسة آلاف، وكانوا يسمون الخرس لعجمة ألسنتهم، وكانوا نوابا على باب قصره.» رواية تؤكدها رواية ابن سعيد الغرناطي المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، في ترجمته لأبي العاص الحكم الربضي (ت.٢٠٦هـ/٨٢٠م): «هو أول من استكثر من الحشم والحفد... وبلغ مماليكه خمسة آلاف، ثلاثة آلاف منهم فرسان وهم الخرس، سموا بذلك لعجمتهم.»[٧٨] كما تؤكدها رواية المقري أيضا.[٧٩] ويبدو أن الحكم بن هشام قد لجأ لهؤلاء المرتزقة عندما كان يستعد للإيقاع بأهل الربض[٨٠] حيث شرع «في تحصين قرطبة، وعمارة أسوارها، وحفر خنادقها، وارتبط الخيل على بابه، واستكثر من المماليك، ورتب جمعا لا يفارقون باب قصره بالسلاح.»[٨١]

لا نستبعد بعد هذا التاريخ إذن، أن تكون العناصر المرتزقة قد أصبحت تذكر في العديد من العمليات العسكرية للأمويين لاحقا. فعندما بويع عبد الله بن محمد (بن عبد الرحمان بن الحكم بن هشام) سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م «ألب ابن حفصون عليه، وحشد كور الأندلس حتى لم يبق منها إلا قرطبة... فخرج إليه الأمير عبد الله في أربعة عشر ألفا من أهل قرطبة خاصة، وأربعة آلاف من حشمه ومواليه.»[٨٢] وعندما غزا المطرف بن عبد الله (ت.٢٨٢هـ/٨٩٤م) بلدة ببشتر وشرع في خرابها «خرج ابن حفصون ومن معه من النصرانية يدافع عنها، وعن كنيسة كانت بقربها، فغلب ابن حفصون وهدمت الكنيسة.»[٨٣] وعمر بن حفصون هذا ينتهي نسبه إلى أصول رومية، يقول عنه ابن الخطيب[٨٤]: «كبير الثوار، وعظيم المنتزين، ومنازع الخلفاء بالأندلس.» توفي سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م، بعد أن أثار فتنا عديدة قاد فيها جموعا كبيرة «من العجم والمولدين»[٨٥].

وهكذا نلاحظ أن المرتزقة أصبحوا يلعبون أدوارا مزدوجة، أو بالأصح أصبحوا يلعبون دورهم الطبيعي بوصفهم مرتزقة، سواء إلى جانب السلطة الرسمية أو إلى جانب الثوار، دور تنامى في عهد عبد الرحمان الناصر الذي «اشتد في مطاردة القبائل والأسر العربية... ومال إلى اصطناع الموالي والصقالبة وأولاهم النفوذ والثقة، فاستأثروا في عهده بأرفع المناصب في القصر وفي الحكومة والجيش، وقد تسببت هذه السياسة على المدى البعيد في إضعاف دولة بني أمية بالأندلس.»[٨٦]

والأمثلة على هذا الضعف كثيرة منها أخبار محمد بن هشام المهدي الذي استعان بالإفرنج ضد الثوار الذين انتفضوا عليه أواخر القرن الرابع الهجري[٨٧]، وجعل قادة جنده ما بين «طبيب وحائك وجزار وسراج...»[٨٨]، وجيش يقوده أمثال هؤلاء لا شك أنه كان مصدر بلوى وفتن، أكثر منه سندا للدولة وعضدها. يقول النويري: «ومن أعجب ما رأيناه أنه كان من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع عشر بقيت من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء الذي يليه - سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م - فتحت مدينة قرطبة وهدمت مدينة الزاهرة، وخلع خليفة وهو هشام بن عبد الحكم، وولي خليفة وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي)، وزالت دولة بني أبي عامر[٨٩] وحدثت دولة بني أمية، وقتل وزير وهو ابن عسقلاجة، وأقيمت جيوش من العامة، ونكب خلق من الوزراء، وولي وزراء آخرون.

وكان ذلك كله على أيدي عشرة رجال حجامين وجزارين وحاكة وزبالين وهم جند عبد الجبار.»[٩٠] عشرة رجال هذه طينتهم يقودون جيشا «من الصعاليك لهم إقدام على كل عظيمة»[٩١] استمالهم محمد المهدي «وأعطاهم من خمسة مثاقيل إلى عشرة وأكثر من ذلك، فاجتمع له منهم نحو أربع مائة رجل...»[٩٢] يتسببون في اندلاع فوضى عارمة استمرت أزيد من ربع قرن، كان بطلها بدون جدال عناصر المرتزقة. يدلنا على ذلك أنه خلال ثمان وعشرين سنة فقط، أي من سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م إلى سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م (التاريخ الرسمي لانتهاء الدولة الأموية بالأندلس)[٩٣] تولى الخلافة خمسة حكام[٩٤] فإذا أضفنا لهم الأمراء الذين انتفضوا عليهم من الأسرة الحمودية[٩٥] - منذ أن بايع العبيد زعيم هذه الأسرة علي بن حمود -[٩٦] وعددهم ستة حكام، فإننا نعد أحد عشر حاكما تلقبوا جميعهم بلقب الخلافة، لكنهم في العمق لم يتعدوا كونهم دمى في يد جند يبايع أو يخلع طاعته على من يدفع أكثر[٩٧]، إلى درجة أن هشام بن محمد المعتمد - الذي تولى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م - «صير أهل الأسواق جندا، وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصلة عليهم، يأخذون ربحها فقط، ورؤوس الأموال باقية محفوظة... وفرق السلاح عليهم، وأمرهم بتفرقته في الدكاكين وفي البيوت، حيث إذا دهم أمر في ليل أو نهار، كان سلاح كل واحد معه.»[٩٨]

ها هنا يبدأ تاريخ آخر للأندلس، تاريخ «حكم الثوار المتغلبين على بلاد الأندلس... وهم المسمون بملوك الطوائف.»[٩٩] تاريخ ميزته السياسية الأساس تكاثر المرتزقة وتحكمهم في الأحداث، تاريخ يلخصه ابن عذاري في اختصار بليغ عندما يقول - واصفا مطلع القرن ٥هـ/١١م - «ولحق بهم (أي أمراء بلنسية وشاطبة) لأول أمرهم من موالي المسلمين، ومن أجناس الصقلب، والإفرنج، والبشكنش عشيرتهم، ودربوا على الركوب حتى تلاحق ببلنسية ونواحيها من هؤلاء الأصناف فوارس برزوا في البسالة والثقاف، وانفتح على المسلمين ببلاد الأندلس أمر شديد في إباقة العبيد، إذ نزع إليهم كل شريد طريد، وكل عاق مشاق.»[١٠٠] بل إن العبيد سيصلون مصاف الأمراء الذين تولوا أمر الحكم وسيروه، وتاريخ مدن الطوائف غني بالأمثلة، فالعبد مبارك أصبح أميرا على بلنسية، والعبد مظفر أميرا على شاطبة[١٠١]، وبعد وفاة مبارك تولى بلنسية لبيب الصقلبي فثار عليه سكان المدينة «فلاذ بالطاغية أمير الإفرنج حتى صير نفسه كبعض عماله، فغاظ المسلمين

ذلك إذ عرضهم لملك النصرانية.»[١٠٢] أما مدينة ألمرية، فقد انفرد بحكمها منذ ٤١٩هـ/١٠٢٨م خيران الصقلبي وتسبب في العديد من الفتن بها إلى درجة أن ابن عذاري وضع إمارته تحت عنوان: «بعض أخبار خيران الفتى المنتزي على مدينة ألمرية أول هذه الفتنة»[١٠٣]. وبينما يقتل منذر بن يحي صاحب سرقسطة وسط حرسه الصقالبة سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م[١٠٤]، يقتل علي بن حمود صاحب قرطبة وهو يقاتل الغلمان الأعاجم المساندين لابن عباد صاحب أشبيلية سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م[١٠٥]. وعلى ذكر أشبيلية فإن أميرها أبا القاسم محمد بن عباد بالغ في شراء العبيد «إلى أن ساوى ملوك الطوائف وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه وكثرة غلمانه»[١٠٦]، ولم يقل عنه في عمله هذا أبو عمرو عباد بن إسماعيل (ت.٤٦١هـ/١٠٦٩م) الذي استولى على غرب الأندلس (شلب وشنترية ولبلة وشلطين...) حيث «ارتبط الخيول واقتنى الغلمان واتخذ الرجال من كل فرقة...»[١٠٧]، وغني عن الذكر أن ملوك الطوائف استخدموا هذه الجيوش ضد بعضهم بعضا قبل كل شيء، حتى قال ابن عذاري في اختصار بليغ: «انقطعت السبل جملة، وكثر القتل والهرج والسلب، وأمسى الناس في مثل عصر الجاهلية».[١٠٨]

وإذا كانت الشريعة قد حرمت قتال المسلمين بعضهم بعضا، وحرمت من باب أولى استعانتهم بالمشركين ضد بعضهم بعض، أو نصرة المسلم للكافر، أو إعطاءه الجزية، أو غير ذلك من المسائل التي أصدر فيها فقهاء الأندلس أيضا فتاواهم بالتحريم وعدم الجواز[١٠٩]، فإن تاريخ ملوك الطوائف يقدم لنا مختبرا غنيا بالتجارب النموذجية عن خرق هذه المحظورات الشرعية، فعندما توفي ابن هود خلف خمسة أبناء، فولي أحمد بن سليمان مدينة سرقسطة، وولي إخوته مدنا أخرى، لكن أحمد احتال على إخوته فسجنهم ما عدا يوسف صاحب "لاردة" وكان أكبرهم، فإنه «حمى حوزته منه. ولما رأى أهل الثغر ما صنعه أحمد بن سليمان بإخوته كرهوه لذلك، وخلعوا طاعته وصيروا أمرهم إلى أخيه يوسف.»[١١٠] وكان يوسف يبعث بالميرة إلى «ابن رذمير صاحب بلاد النصرانية المجاورة»[١١١]، فكتب أحمد إلى زعيم النصرانية وأغراه بالمال حتى يخلي بينه وبين رجال أخيه «فلما بعث أخوه إلى بلاد ابن رذمير برسم الميرة لبلاده خيلا ورجالا بدواب كثيرة، سرى إليهم (أحمد) من سرقسطة فأخذهم وقتلهم، وكانوا قد توسطوا بلاد الروم، فامتلأت أيدي الروم من أسلابهم... وكانوا آلافا فأخذ النصارى أكثرهم أسرى وفتك بعضهم.»[١١٢]

نأمل ألا يفهم من النص المتعلق بابن هود على أنه استثناء في تاريخ ملوك الطوائف، إذ الأمثلة على الصراعات المهلكة بين هؤلاء الأمراء - والتي تورط فيها المرتزقة - كثيرة،[١١٣] ولسنا هنا مضطرين لحصر كل هذه الصراعات، وإلا كان علينا في الواقع إعادة كتابة تاريخ ملوك الطوائف برمته. لكننا نقنع هنا بالخروج - من وراء هذا الصراع - بنتيجتين حادتي الدلالة: أولاهما أن هؤلاء الأمراء كانوا يقاتلون بعضهم بعضا "مقاتلة الكفار"[١١٤]، وثانيهما أن هذا الصراع يبرز لنا، بما لا يدعو للشك، دور المرتزقة فيه (من عبيد وصقالبة ونصارى ويهود...) وليست الأدلة، هنا أيضا، ما يعوزنا لتوكيد هذه الدعوى.

فالعبيد «هتكوا الأستار وفتكوا الأبكار، حتى كانت دماؤهن تسيل على أقدامهن عاريات باكيات، واستحوذ السودان وسفال العسكر على النساء، فكانت أخبيتهم مملوءة منهن...»[١١٥]. واليهود أصبحوا عمالا متصرفين، وفي مقدمتهم يوسف بن إسماعيل بن نغرالة وزير الدولة الزيرية بالأندلس، وكان الأمير باديس بن حبوس لا يعقد أمرا دون استشارته، بينما كان اليهودي لا يألو جهدا للكيد للمسلمين[١١٦]. وقد اكتسب اليهود «الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين»[١١٧]، وجمع - ابن نغرالة - الأموال واستعمل اليهود على الأعمال، وكانت له على أميره عيون في قصره من نساء وفتيان[١١٨] «فلا يكاد باديس يتنفس، إلا وهو يعلم ذلك»[١١٩] ثم إنه «أقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يغنى بها»[١٢٠]، ومثل هذا كان يحدث أيضا في بلاط بني هود بسرقسطة مع «أبي الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي الإسرائيلي...كان أبوه يوسف بن حسداي من بيت شرف اليهود، متصرفا في دولة ابن رزين».[١٢١]

أما النصارى فقد لعبوا زمن ملوك الطوائف أدوارا خطيرة جدا، لعل من أهمها ما قام به سسناندو دافيديث الذي عاش في بلاط المعتضد (والد المعتمد بن عباد) وكان معربا ومن المستشارين المقربين للمعتضد، عندما انسحب للجانب المسيحي أثناء المفاوضات المسيحية/الإسلامية بشأن مدينة طليطلة، ليصبح أحد المقربين من فرناندو الأول (والد ألفونصو السادس) ثم ألفونصو السادس من بعده، حيث أشار عليه بالخطة التي اتبعها لاحتلال المدينة (طليطلة).[١٢٢]

ورغم ذلك ما ينبغي لنا أن نفاجأ بهذا الموقف بعد أن نقرأ تفاصيل المؤامرات التي كان يحيكها أمراء الطوائف ضد بعضهم بعضا - وكان المرتزقة أدواتها -، ومنها أن يحي بن إسماعيل بن ذي النون (صاحب طليطلة) استعان «بالقومسان الإشبان من ولد الطاغية شانجة»[١٢٣] ضد سليمان بن هود (صاحب سرقسطة) «فراسل ابن هود فرذلند الطاغية، وبعث إليه بأموال جمة وهدايا جليلة، وسأله الخروج إلى بلد ابن ذي النون بجيشه، فخرج بعدد عظيم إلى ثغر طليطلة، فأفنى حماته ورجاله، وعاث في بلادهم.»[١٢٤] وهنا نلاحظ واحدا من أسوأ أشكال الارتزاق، حيث يمول حاكم مسلم جند حاكم كافر للإغارة على بلد مسلم، هذا فضلا عن وجود مرتزقة نصارى ضمن الجند الإسلامي نفسه، فالرواية تواصل بأن «ابن هود مكر بابن ذي النون واستخرج طائفة من النصارى المظاهرين له... وأثر في أعمال ابن ذي النون آثارا قبيحة.»[١٢٥] فما كان من فرذلند. المظاهر لابن ذي النون. إلا أن خرج «إلى ثغر طليطلة في خلق كثير، وجاءه ابن عم ذي النون ليدله على عورات البلاد.»[١٢٦]

بدأنا تاريخ الارتزاق ببلاد المغرب قبل قيام المرابطين، بالنصارى وهم يدلون الفاتحين المسلمين على ثغرات البلاد لفتحها، وها نحن ننتهي بالمسلمين وهم يدلون النصارى على عورات البلاد لاستردادها.

الهوامش

-١

Leveque, Pierre, L'aventure grecque, Armand Colin, Paris, 3ème Edit. p.p.207-208

٢- Ibid, p .273 .

٣- Ibid. p.335

٤- Ibid.p.394 .

٥- تفاصيل أخرى عن طرق استنفار المرتزقة وظروف عيشهم باليونان القديمة بالمرجع نفسه ، ص.٤٤٢ - ٤٤٥. خاصة وأن الحرب اقترنت بالاسترقاق منذ فجر التاريخ ، وبالذات في العالم الإغريقي. انظر:

Henri walon, Histoire de l'esclavage dans l'antiquité, édit. Robert Laffont, Paris, 1988, p. 180.

٦- انظر مادة: "المرتزقة" ضمن:Dictionnaire C.D. Axis, Hachette وكذا Hachette encyclopedique, p.1011 ، ومادلين هورس ميادان ، تاريخ قرطاج ، ترجمة إبراهيم بالش ، سلسلة زدني علما ، ع.٣٢ ، عويدات ، بيروت ، ص.٧٩ وما بعدها. كما يمكن التفصيل أكثر في موضوع الارتزاق من خلال مادة "مرتزقة" ضمن موسوعة: C.D. Universalis عند تعرضها لمجموعة من الحضارات منها الأوتروسكية والقرطاجية والإغريقية...

٧- كما أن الأعراف الجاهلية ابتكرت شيئا جديدا (الأشهر الحرم) للاطمئنان والاستكانة ، إلا أن هذه الأشهر الحرم نفسها قد انتهكت مرارا (حرب الفجار مثلا)، كما أن مواقعها من السنة كانت تتغير بحسب رغبة بعض القبائل وعلى رأسها قريش ، وسمت ذلك "نسيئا". ابن هشام ، م.١ ، ص.١٨٤ ، هامش"١" ، لسان العرب ، ج.٦ ، ص.٦٢٢. ثم جاء الإسلام ليحسم في الموضوع: "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير"(البقرة/٢١٧)، "إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما"(التوبة/٣٧) .

٨- محمد رضا ، محمد رسول الله ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص.١٥٧ - ١٦١ فيما يتعلق بعدد السرايا قبل بدر ، وص.٣٤٩: عدد الغزوات التي شارك فيها النبي ٢٧ غزوة وعدد البعوث والسرايا ٣٨.

٩- نقصد هنا طبعا "الأيام" التي كانت تقع بين القبائل دون الحروب التي نشبت بين الفرس والروم وكانت الجزيرة مسرحا لها. للتوسع في هذه النقطة يمكن الرجوع إلى: نجيب محمد البهبيتي ، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، دار الفكر ، ط.٤ ، ١٩٧٠ ،ص.٢٦ - ٤٣. وفيما يتعلق بحروب الجزيرة خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، ينظر أيضا: حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط.٧ ، ١٩٦٤ ،ج.١ ، ص.٥٢ - ٥٧. فحرب البسوس التي دامت أربعين سنة مثلا ، لم تزد فيها أيام المواجهة الحقيقية عن ستة أيام وهي: يوم النهي ، ويوم الذنائب ، ويوم واردات ، ويوم عنيزة ، ويوم القصيبات ، ويوم تحلاق اللمم. انظر:حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، المطبعة البوليسية ، صص.٦٩ - ٧٠. ويمكن أيضا الرجوع فيما يتعلق بالبسوس إلى: ابن منظور ، لسان العرب ، م.١ ،ص.٢١٢ ، وعن داحس والغبراء: م.٢ ، ص.٩٥١ .

١٠- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص.١٤٢ .

١١- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص.١٤٦وما بعدها .

١٢- هناك ارتباط عضوي بين الإقطاع والجيش والارتزاق ، فالإقطاع «إما إقطاع تمليك أو استغلال. الأول يشمل الأرض الموات والعامر والمعادن ، والثاني ما وضع عليه الخراج على أن يكون المنتفع به ، عند الماوردي ، من مرتزقة أهل الفيء والمفروض لهم في ديوان العطاء ، وهم أهل الجيش الذين هم أخص الناس بجواز الإقطاع.» انظر: إبراهيم حركات ، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط ، دار أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ١٩٩٦ ، ص.١٢ .

١٣- ابن هشام ، السيرة ، م.٢ ، ص.١٩٣

١٤- إبراهيم حركات ، المرجع نفسه ، ص.١٢. وعن تطور الإقطاع في عهد عثمان وما بعده ، ص.١٢-١٤ ، وعن الأموال التي كان يأخذها الجيش ، تراجع: ص.٢٥٦-٢٦٢.

١٥- الطبري ، ج.٢ ، ص.٤٩٠ .

١٦- نفس المصدر والصفحة .

١٧- المصدر نفسه ، ص.٥٧٠ .

١٨- المصدر نفسه ، ص.٥٧١ .

١٩- المصدر نفسه ، ص.٥٧٠ .

٢٠- فقد تكاثر الموالي والذميون والمجوس... في الدولة والمجتمع الإسلاميين ، وكان عمر بن الخطاب يدرك خطرهم ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات.» انظر: أحمد بن داود الدينوري ، الأخبار الطوال ، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي ، مصر ، ص.١٢٣ . وعندما علم بأن الفرس هم الذين قتلوه قال: «ما كانت العرب لتقتلني.» انظر: ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، القاهرة ،١٣٢٩هـ ، م.٣ ،ج.١٢ ،ص.١٤٤. وكذلك قال بعد أن طعن: «ألم أقل لا تجلبوا إلينا من العلوج فغلبتموني.» ابن أبي الحديد ، نفس المصدر والصفحة. والغريب ، حسب ابن تيمية ، أن بعض "الروافض" يعظمون «أبا لؤلؤة المجوسي الكافر... لما قتل عمر ويقولون: واثارات أبي لؤلؤة.» انظر: أحمد ابن تيمية ، منهاج السنة في نقض كلام الشيعة والقدرية ، المطبعة الأميرية ، بولاق ،١٣٢١هـ ، م.١ ، ص.١١.

٢١- الطبري ، ج.٣ ،ص.٢٦٤.

٢٢- ابن خلدون ، المقدمة ، الدار الإفريقية العربية - دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص.٢٧٣. للتوسع في مسألة دخول العنصر التركي الحياة العسكرية منذ عهد المعتصم (تولى الخلافة سنة٢١٨هـ)، ثم التطورات اللاحقة ، خصص أحمد أمين عدة صفحات من كتابه "ظهر الإسلام" دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط.٥ ، ١٩٦٩م ، ج.١ ، ص.٣ وما بعدها. كما خصص: ص.٩ وما بعدها للحديث عن الفرس ، وص.٦٤... للروم ، وص.٧٠...للزنج. ولمتابعة المرتزقة خاصة الأتراك في الدولة الإسلامية خلال القرنين ٨م و٩م ، ثم التطورات اللاحقة إلى غاية النضج مع الدولة العثمانية ، يراجع: بيري أندرسون ، دولة الشرق الاستبدادية ، ترجمة بديع عمر نظمي ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ،١٩٨٣ ، ص.١٠ وما بعدها .

٢٣- محمد زنيبر ، مفهوم الدولة والأمة في العصر الوسيط ، مجلة الوحدة ، السنة٤ ، عدد٤٢ ، مارس ،١٩٨٨ ، ص.٦٧. ويكفي لنقض هذا التصور (الذي يرد تاريخ الارتزاق للعهد الثاني من الدولة العباسية) أن نورد قول ابن عذاري بأن هارون الرشيد أرسل سنة ١٩١هـ إلى إفريقية «ثلاثين ألفا من جند خراسان» البيان المغرب ، ج.١ ، ص.٩٤ ، وكذا ص.٩٠ ، مما يعني أن المرتزقة كانوا - على الأقل - في العهد الأول للدولة العباسية .

٢٤- ستانلي لين بول ، طبقات سلاطين الإسلام ، ترجمة مكي طاهر الكعبي ، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص.ص.١٧. ١٨ .

٢٥- مع الإشارة إلى أننا لم نرد تكرار نفس المعلومات والأخبار التي ضمناها العنصر الخاص بالارتزاق في منظور الشريعة .

٢٦- يمكن متابعة الظاهرة ضمن الجزأين الثاني والثالث من "تاريخ الأمم والملوك".

٢٧- ندخل في بلاد المغرب الأندلس أيضا لأننا لم نستطع فصلها تاريخيا عن شمال أفريقيا ، نظرا لتداخل أحداث المنطقة .

٢٨- الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص.ص. ١٢ - ١٣ .

٢٩- القيرواني ، ص.١٦. ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقيا والأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص.٥٩ .

٣٠- يذكر ابن عذاري ، ج.٢ ، ص.٥ ، أن الغالب على نسب طارق أنه بربري ، لكن هناك من يرى أنه فارسي الأصل.

٣١- القيرواني ، ص.٣٣. ابن عبد الحكم ، ص.٦٤ .

٣٢- القيرواني ، ص.٣٤ . انظر أيضا ص.٣٩ ، كيف كان تحت إمرة طارق وهو بطنجة ١٢ ألف فارس من البربر. وأيضا: ابن عذاري ، ج.١ ، ص.٣٨ ، وابن عبد الحكم ، ص.٧١ .

٣٣- القيرواني ، ص.٣٦ .

٣٤- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.١٦ .

٣٥- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.٣١. ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقيا والأندلس ، ص.٥٩.

٣٦- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.٣٥ .
٣٧- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.٤٧ - ٨٢ .
٣٨- بلغ عدد المواجهات بين العرب والبربر ٣٧٥ وقيعة حسب ابن عذاري ، ج.١ ، ص.٧٧ .
٣٩- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.٩٠ .للمقارنة انظر: القيرواني ،ص.٦٤ وما بعدها ، والبلاذري ، ص.٣٢٥.
٤٠- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.٩٤ ، وذلك لقمع ثوراتها التي كان يقودها الجند أحيانا إذا ما قتر عليهم في الرزق «وكان سبب عزل ابن العكي (محمد بن مقاتل بن حكيم العكي ، ولي إفريقية سنة ١٨١هـ) أنه اقتطع من أرزاق الجند وأساء السيرة فيهم وفي الرعية.» القيرواني ، ص.١٧٠.
٤١- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.١٠١ .
٤٢- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.١٧٧ .
٤٣- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.١١٨. كما حمل معه «من بيت مال مصر ثمانمائة حمل دنانير ذهبا ، فأعطى أصحابه الأرزاق بها.» نفس المصدر والصفحة .
٤٤- ابن عذاري ، ج.١ ، ص.١٥٠. علما بأن إفريقية ستظل على اتصال مفتوح مع مصر ، وبالتالي بلاد النوبة ، مصدر "البقط" Pactum (سبي النوبة) الذين استعملوا في مختلف المهام.
François Renault, La traite des noirs au proche orient médiéval, VII-XIV siècles, Librairie orientaliste, Paris, 1989, p. 11-42
فلا نستبعد أن يكون بعضهم قد اشتغل بالجندية أيضا.
٤٥- أبو محمد الحميدي الأندلسي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق روحية عبد الرحمان السويفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص.١٣. ويذكر الطالبي أن طريف البرغواطي ينتمي إلى أصول يهودية ، وأنه ساهم - مع أقربائه - في فتح الأندلس ، وحصلوا مقابل ذلك على امتيازات مادية مهمة. انظر: محمد الطالبي وإبراهيم العبيدي ، البرغواطيون في المغرب ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٩ ، ص.ص.١٠- ١١.
٤٦ -ابن عذاري ، ج.٢ ، ص.٦. القيرواني ، ص.ص.٤١ - ٤٢. البلاذري ، ص.٣٢٣. ابن عبد الحكم ، صص. ٧٢ - ٧٣ .
٤٧- ابن عذاري ، ج.٢ ، ص.٩. وقارن تفاصيل الفتح عند ابن عبد الحكم ، ص.٩٥ وما يليها ، حيث يركز خصوصا على مسألة الغنائم.
٤٨- ابن عذاري ، ج.٢ ، ص.١٠ .
٤٩- لا يختلف الفقهاء في القول بجواز استعمال الكفار واستئجارهم للخدمة والدلالة على الطريق ونحو ذلك أثناء الجهاد. انظر: الطريقي ، الاستعانة بغير المسلمين ، ص.٢٦١ .
٥٠- ابن عذاري ، ج.٢ ، ص.١٣ .
٥١- ابن عذاري ، ج.٢ ، ص.١٣.
٥٢- الطريقي ، ص.٢٦١.
٥٣- انظر على سبيل المثال تفاصيل فتح قرطبة عند ابن عذاري ، ج.٢ ، ص.١٠.
٥٤- لاحظ أن ابن عذاري على طول الصفحات التي يصف فيها فتح الأندلس ، عندما يستعمل كلمة "العلوج" يقصد بها "النصارى". انظر مثلا: البيان المغرب ، ج.٢ ، ص. ١٠ -١١ - ١٢ - ١٤...
٥٥- ابن عذاري ، ج.٢ ، ص.ص.١٣ - ١٤.
٥٦- ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ج.٣ ، ص.٥٢٩.
٥٧- النويري ، ص.٢٥٣. وعند ابن عذاري ، ج.١ ، ص.ص.٩٢ - ٩٣ ، أن ابن الأغلب اتخذ جيشا من العرب والعبيد .
٥٨- النويري ، ص.٢٦٦ ، وص.٢٧٦. ويذكر ابن عذاري (ج.١ ، ص.١٠١) أن الزنوج - ألف أسود - كانوا موجودين أيضا في معركة سبيبة سنة ٢١٠هـ ، أي في ولاية زيادة الله بن الأغلب.
٥٩- النويري ، ص.٢٧٦ .
٦٠- نفس المصدر والصفحة ، بينما يختزل ابن عذاري (ج.١ ، ص.١٧١) هذه الأحداث في جملة: «وفي سنة ٢٦٤ كمل بناء القصر المعروف بالفتح ، وانتقل إليه إبراهيم بن أحمد ، وقتله للموالي بالقصر القديم لأنهم ثاروا عليه.»

٦١- النويري ، ص.٢٧٨. ويعرف عبد الله عنان الصقالبة بأنهم المماليك من مختلف الجنسيات الأوروبية ، انظر: الإحاطة ، ج.١ ، ص.٤٤١ ، هامش "١"و"٢" .
٦٢- النويري ، ص.٢٧٨ ، وقارن مع ابن عذاري ، ج.١ ، ص.ص.١٢٢-١٢٣ ، ضمن أحداث سنة ٢٧٩هـ.
٦٣- ابن عذاري ، ج.٢ ، ص.٢٤٧.
٦٤- نفسه ، ج.٢ ، ص.ص.٢٤٧ - ٢٤٨.
٦٥- النويري ، ص.ص.٢٩٨-٢٩٩ ، بينما يكتبه إسماعيل بن الأحمر: "جوهر الرومي البندقي". انظر: بيوتات فاس الكبرى ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٢ ، ص.١٦ ، وابن عذاري ، ج.١ ، ص.٢٢١.
٦٦- نتحدث عنهم باعتبار دولتهم ، أو على الأقل السلطة العليا فيها ، كانت بيد عرب شرفاء. للتوسع في استخدام الفاطميين للبربر ، وخصوصا من كتامة ، يراجع: فرحات الدشراوي ، الخلافة الفاطمية بالمغرب ، تعريب حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ص.ص.٥٣٧- ٥٣٨.
٦٧- تفاصيلها عند النويري ، ص.٣٩٨ وما بعدها ، وابن عذاري ، ج.١ ، ص.١٢٧ ، وص.١٥٠وما بعدها .
٦٨- النويري ،ص.٣١٤ ، وانظر كيف أصبحوا ألوفا بالمنصورية سنة ٣٧٣هـ ، عند ابن عذاري ، ج.١ ، ص. ٢٣٨.
٦٩- لاحظ كلمة "عبيد" التي تتردد عند النويري على طول الصفحات التي يصف فيها العمليات العسكرية ، مثلا: ص.٣٢٧ - ٣٣٠ - ٣٣٢ - ٣٦٢ ...
٧٠- لكنه رغم ذلك خسر المواجهة. النويري ، ص.ص.٣٤٥ - ٣٤٦ .
٧١- تفاصيل الأسباب التي أدت بالفاطميين إلى إرسال العرب لبلاد المغرب ، عند النويري ، ص.ص.٣٤٢ - ٣٤٣ ، وعند ابن عذاري ، ج.١ ، ص.٢٨٨ وما بعدها .
٧٢- النويري ، ص.ص.٣٤٥ - ٣٤٦ .
٧٣- نفسه ، ص.ص.٣٤٨ - ٣٤٩ .
٧٤- كانوا قد وفدوا إلى طرابلس الغرب بزعامة ملك شاه التركي ، النويري ، ص.ص.٣٤٨-٣٤٩. أما تفاصيل قدوم ملك شاه ومساهمته في أحداث المنطقة إلى جانب مثنى بن تميم في ثورته ضد أبيه (تميم بن المعز) ، فيراجع النويري ، ص.ص.٣٥٨ - ٣٥٩.
٧٥- كما أن عبد الرحمان الداخل اعتمد في عملياته العسكرية الأولى لإخضاع الأندلس على الجيش العربي. ويذكر بروفنصال أن الأندلس إلى هذا التاريخ كانت قد غرقت في صراعات دموية بين القيسية واليمنية ، وبين العرب والبربر:
. Levy Provençal, Histoire de lEspagne musulmane, Paris-Leide, E pp. 37-38. t.1, ثم يكتب أزيد من ٢٠ صفحة عن التركيبة الإثنية الاجتماعية بالأندلس: بربر - عرب - صقالبة - أسبان... Ibid, t. 3, p.167-188 .
٧٦- النويري ، ص.٦٧.
٧٧- نفسه ، صص.٩٢ - ٩٣ .
٧٨- علي بن محمد بن سعيد الغرناطي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧ ، ج.١ ، ص.١٣ .
٧٩- أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج.١ ، ص.٣٢٧-٣٤٩ .
٨٠- اندلعت ثورة الربض حسب النويري (ص.ص. ٨٩ - ٩٠) سنة ١٩٨هـ أو سنة ٢٠٢هـ ، وحسب ابن سعيد الغرناطي (ج.١ ، ص.١٥) سنة ٢٠٢هـ .
٨١- النويري ، ص.٨٩ ، ابن سعيد ، ج.١ ، ص.١٥.
٨٢- النويري ، ص.١١٢ .
٨٣- ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج.٣ ، ص.ص.٢٧٩ - ٢٨٠ .
٨٤- الإحاطة ، ج.٤ ، ص.٣٨ .
٨٥- نفسه ، ج.٤ ، ص.٣٩ .
٨٦- محمد بن عبود ، مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره ، سلسلة المعتمد بن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره ، منشورات عكاظ ، الرباط ،١٩٨٩ ، صص.١٦ - ١٧.
٨٧- الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص.٢٢ ، وابن الخطيب ، الإحاطة ، ج.١ ، ص.٩٣ .
٨٨- النويري ، ص.١٣.

٨٩- لما تولى هشام المؤيد بالله الخلافة (٣٦٥هـ) كان صغير السن (١٢ سنة) فتقرب المنصور بن أبي عامر إلى أم الخليفة هشام «فأمدته المرأة بالأموال، فاستمال العساكر إليه» النويري، ص.١٢٢. «فأول عروة فصمها (ابن أبي عامر) من عرى المملكة، عروة الصقالبة... عني الخلفاء بجمعهم والاستكثار منهم، وكانوا خاصة الناصر والحكم بعده، حتى لقد ظهرت منهم في زمن الحكم أمور قبيحة أغضى عنها مع إيثاره العدل... وكان يقول: هم أمناؤنا وثقاتنا على الحرم، فينبغي للرعية أن تلين لهم... فتسلم من معرتهم، إذ ليس يمكننا في كل وقت الإنكار عليهم. ولما مات الحكم، كان الصقالبة أكثر جمعا وأحد شوكة، يظنون أن لا غالب لهم. وأن الملك بأيديهم.» ابن عذاري، ج.٢، ص.٢٥٩. فجاء ابن أبي عامر وفتك بهم. ابن سعيد الغرناطي، المغرب، ج.١، ص.١٣٧.

٩٠- النويري، ص.١٣٤، حيث يلاحظ تواتر الفتن التي تورطت فيها مختلف العناصر: عرب، بربر، صقالبة...

٩١- النويري، ص.١٢٨.

٩٢- النويري، ص.١٢٨.

٩٣- هذا إذا اعتمدنا التاريخ الذي حدده النويري، ص.١٣٧. أما إذا اعتمدنا ابن عذاري فإن له رأيا مخالفا حيث يقول: «قد ذكرنا ما كان من تداول الولاة والأمراء الأمويين من بعده إلى دولة ابن أبي عامر، وذكرنا من ولي الخلافة بقرطبة في زمان الفتنة إلى سنة اثنين وعشرين وأربعمائة، وهو حين خلع أهل قرطبة بني أمية أجمعين.» البيان المغرب، ج.٣، ص.١٥٥، أي التاريخ الرسمي لبداية حكم «الثوار المتغلبين على بلاد الأندلس... وهم المسمون بملوك الطوائف.» ابن عذاري، ج.٣، ص.١٥٣.

٩٤- النويري، صص.١٣٦ - ١٣٧.

٩٥- وهي أسرة حسنية علوية. انظر النويري، ص.١٣٧.

٩٦- بويع سنة ٤٠٧هـ «وفي سنة ثمان وأربعمائة خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه، وقدموا عبد الرحمان بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمان الناصر، وسموه المرتضى وزحفوا به إلى غرناطة، ثم ندموا على إقامته لما رأوه من صرامته وخافوا عواقب تمكنه، فانهزموا عنه ودسوا عليه من قتله غيلة، وبقي علي بن حمود بقرطبة إلى آخر سنة ثمان وأربعمائة فقتله صقالبته في الحمام، فكانت مدة ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر.» النويري، ص.١٣٨، وانظر أيضا خبر الاغتيال عند: الحميدي، جذوة المقتبس، ص.ص.٢٤ - ٢٥، وابن الخطيب، الإحاطة، ج.٤، صص.٥٧ - ٥٨.

٩٧- انظر على سبيل العد لا الحصر: ولاية علي بن حمود الناصر - ولاية القاسم بن حمود المأمون - ولاية يحي بن علي المعتلي - ولاية عبد الرحمان بن هشام المستظهر... بعضهم لم تزد مدة ولايته عن بضعة أشهر قبل أن يخلع أو يغتال. الحميدي، ص.٢٤ - ٢٧ وصص.٣٠ - ٣١، وقارن مع النويري، ص.١٣١ - ١٧١.

٩٨- الحميدي، ص.٢٩.

٩٩- ابن عذاري، ج.٣، ص.١٥٣.

١٠٠- ابن عذاري، ج.٣، ص.١٦٠. انظر أيضا دور الصقالبة في أحداث دولة بني حمود عند: مؤرخ مجهول، تاريخ مبتور الأول والآخر في أخبار دول ملوك الطوائف، نشره ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنصال في نهاية الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذاري، ص.٢٩١.

١٠١- ابن عذاري، ج.٣، ص.١٥٨ - ١٦٣.

١٠٢- نفس المصدر والصفحات.

١٠٣- نفسه، صص.١٦٦ - ١٦٧. ومؤرخ مجهول، تاريخ مبتور...، ص.٢٩٣. وتوفي خيران سنة ٤١٨هـ، وكان مولى للمنصور بن أبي عامر. انظر: ابن سعيد الغرناطي، المغرب في حلى المغرب، ج.٢، ص.١٦٢، ونفح الطيب، ج.١، ص.١٤١. وابن عسكر وابن خميس، أعلام مالقة، تحقيق عبد الله المرابط الترغي، دار الأمان - دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩م، ص.٢٩٦ وص.ص.٣٥٨ - ٣٥٩.

١٠٤- ابن عذاري، ج.٣، ص.١٧٨.

١٠٥- المصدر نفسه، ص.١٨٩. بينما نجد في أعلام مالقة، أن مقتله كان في الحمام بقصر قرطبة سنة ٤٠٨هـ.

١٠٦- المصدر نفسه، ص.١٩٦.

١٠٧- المصدر نفسه، ص.٢٠٥.

١٠٨- المصدر نفسه، ص.٢١١.

١٠٩- ابن عبود، مباحث في التاريخ الأندلسي، ص.٨٩.

١١٠- ابن عذاري، ج.٣، صص.٢٢٢ - ٢٢٣.

١١١- نفسه، ص.٢٢٣.

١١٢- نفسه، ص.٢٢٩، وعن دفع الجزية للروم ينظر على سبيل المثال: ص.٢٩٩ - ٢٣٨... أما عن أسرى المسلمين وغيرهم ب"دار الكفر" الأسبانية (نموذج أراغون) فيراجع:

Liauzu Guy, La condition des musulmans dans l'Aragon chrétien aux XI et XII siècles, in Hesperis, Vol. IX, fasc.2, 1968, p. 185-200.

١١٣- ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٣١. وعن الصراع الذي دار بين بني جهور وبني ذي النون: ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٣٣. وصراع ابن عباد مع ابن الأفطس: ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٣٤. وأخبار الفتن والثورات عند المؤرخ المجهول، تاريخ مبتور، ص.٢٩٦ وص.٢٩٩ (فتن ضد المعتضد بن عباد)، وص.٣٠٣ (أخبار شاطبة وبلنسية زمن ابن ذي النون سنة ٤٥٢هـ وما بعدها). كما يمكن الرجوع إلى أخبار هذه الأحداث مختصرة عند ابن سعيد الغرناطي، المغرب، ج.٢، صص.١٣ - ١٤.

١١٤- ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٦٩.

١١٥- نفس المصدر والجزء والصفحة.

١١٦- ابن الخطيب، الإحاطة، ج.١، ص.٤٣٧.

١١٧- الإحاطة، ج.١، ص.٤٣٨، ويكتبه ابن سعيد الغرناطي: ابن نغرلة (المغرب في حلى المغرب، ج.٢، صص.٩٠ - ٩١ وصص.١٠٦ - ١٠٧)، بينما يكتبه المقري: ابن نفدلة (نفح الطيب، ج.٦، ص.٩٣).

١١٨- الإحاطة، ج.١، صص.٤٣٩ - ٤٤٠، وابن عذاري، ج.٣، ص.٢٦٤.

١١٩- الإحاطة، ج.١، ص.٤٤٠، وابن عذاري، ج.٣، ص.٢٦٥.

١٢٠- ابن سعيد الغرناطي، المغرب، ج.٢، ص.٩١. بل بلغت الجرأة بابن نغرالة أنه «طلب أن يقيم لليهود دولة، فدس إلى ابن صمادح صاحب ألمرية في السر أن يدخله غرناطة ويكون اليهودي على ألمرية.» ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٦٦، لكن هذا التدبير وصل إلى صنهاجة فقتلوه وصلبوه سنة ٤٥٩هـ "وقتل من اليهود أكثر من ثلاثة آلاف." ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٦٦ - ٢٧٥.

١٢١- ابن سعيد الغرناطي، ج.٢ن ص.٣٥٧، ونفح الطيب، ج.٢، ص.٧٤، بينما برع يهود آخرون في الطب والشعر بالأندلس، ومنهم: إلياس بن صدود بمدينة رندة في صدر المائة السادسة.(المغرب، ج.١، ص.٢٥٩، ونفح الطيب، ج.٥، ص.٧٥)، وأبو إسحاق إبراهيم بن الفخار الذي عاش في بلاط طليطلة، ولما ملكها أذفونش مدحه ابن الفخار بقوله:

حضرة الأذفونش لا برحت *** غضة أيامها عرس

فاخلع النعلين تكرمة *** في ثراها إنها قدس

انظر: المغرب في حلى المغرب، ج.٢، صص.١٣-١٤، ونفح الطيب، ج.٥، ص.٧٤. ولمزيد من الاطلاع عن الفكر اليهودي القروسطي ننصح بقراءة:

Vajda, g., Introduction à la pensée juive du moyen age, Paris, 1947.

١٢٢- ابن عبود، مباحث في التاريخ الأندلسي، ص.١٥٢. ومن أهم الدراسات التي تناولت، في إشارات تحليلية عميقة، المجال الأندلسي ضمن أوربا الغربية منذ سقوطها في يد المسلمين إلى حين استرجاع طليطلة ضمن حروب الاسترداد المسيحية دراسة جورج دوبي الاقتصادية:

Georges Duby, Guerriers et paysans : VII-XII siècle : premier essor de l'économie europeénne, Gallimard, Paris, 1973.

١٢٣- ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٧٨.

١٢٤- ابن عذاري، ج.٣، ص.ص.٢٧٩ - ٢٨٠.

١٢٥ -ابن عذاري، ج.٣، ص.ص. ٢٨٠ - ٢٨١.

١٢٦-ابن عذاري، ج.٣، ص.٢٨١.